

الفصل الرابع المرأة في ريفنا

تحدثنا في الفصل السابق عن حياة الفلاح المصري وعن خلقه ونفسيته بما سمحت لنا معرفتنا به وبما استطعنا أن نجلي صورته على وجهها الحق أو القريب من الحق للبيئات المدنية التي تجهلها ، ونحب الآن في هذا الفصل أن نتحدث أيضا عن المرأة الريفية كما تحدثنا عن الرجل، لأنه اذا ذكر الرجل فيجب أن تذكر معه المرأة جنباً لجنب ليتآخي النوعان ويتآلف الشقيقان

نظن أن القارئ الكريم قد يكون كَوّن لنفسه الآن رأياً تصوريا في المرأة الريفية المصرية بعد ان وقف على ناحية من حياة الرجل الريفي المصري وخلقته ونفسيته ومركزه الاجتماعي العام ، وذلك لأنه قد عودتنا الانسانية وكذلك التاريخ أن نرى تطور المرأة يلزم دائما تطور الرجل، وان الحكم على الرجل في أى أمة من الأمم يتبعه حتما أو غالبا الحكم على المرأة حكما متناسبا متضامنا مع الحكم الأول ، وما دمنا الى الآن قد فهمنا بعض الفهم مركز الرجل في القرى فليس بعسير علينا اذن أن نفهم بعض الفهم أيضا مركز المرأة !

نرى من الواجب علينا قبل أن نبدأ في الحديث عن المرأة في الريف أن نسجل لها في هذه البداية حسنة هي خير حسناتها وفخرا هو خير فخار في جهادنا النسوي ، ذلك هي أنها خير ساعد لرجلها وأحسن معين لشريكها كأنها تفهم حق الفهم مركز المرأة بأزاء الرجل وواجبات الزوج حيال زوجها، وكأنها تقدر حق التقدير معنى الشراكة الزوجية ومعنى التعاقد الروحي الذي هو خير ما نريده نحن أنصار المرأة

المرأة القروية على جانب كبير من النشاط الحي العملي ومن الوفاء لزوجها ومشاركاتها اياه في عمله مشاركة فعلية ، فهي تخرج معه سافرة الوجه أمام كل الرجال ، لا تتحرج ولا تتقنع بقناع قد يحجب وجهها وقد لا يحجب سوءتها ، تخرج معه الى الغيط أو الى الحقل وتسحب معه مواشيه وحميره وأغنامه ، ترعاها في الحقول والمراعي وتسقيها من الترع وتقوم بأكلها وبحاجاتها جميعا ، تقف بجانبه في الغيط تساعد في عمله ، وقد تحمل الفأس مثله وتفاح بها الارض أيام الغراس ، وقد تسهر بجانبه ليلا وتكشف عن ساقبيها وتشمر عن سواعدها وتروي الارض ، وقد تمسك هي المحراث بجملد كريم وصبر جميل أو تحمل الردم والسباح مع الرجل ، تجلس على النورج أيام الدراس ولا تخشي على نفسها هجير الحروقت الظهيرة ولا تشفق على وجهها السافر من أن تلفحه الشمس أو يسفعه التراب ، وعند الحصاد تراها خير معين لزوجها ، وأحيانا تجدها موفقة

عليه في عمله وأشد منه نشاطا وتوفيقا . ففي أيام جنى القطن وهو موسم الفلاح تجدها جنباً لجنب معه مشمرة عن ملابسها تجري النشاط في دمها فيزيدها نضرة وجمالاً تحت الشمس المحرقة لا تكل عن العمل ولا تتبرم من السكد ولا تشكو من التعب ولا تتأذي من الشمس ولا من الشوك المبعوث وسط الزرع بكثرة

في كل هذه المواقف من العمل تري المرأة جنباً لجنب مع الرجل سافرة كاشفة عن وجهها لكل رجل في الغيط أو في الطرق العامة أو في دارها ، فهي لا تعرف للقناع أو للحجاب سبيلاً أو حاجة فقناعها هو عفافها ، وحجابها هو شرفها ، هو ثقته بنفسها وإيمانها بطورها ثقة تهيم على كل ملكاتها وإيمانها يتعامل في كل أعضائها ، وماذا يجدي القناع المقتنعات إذا كان وراءه نفس تلعب بها الأهواء المنكرة الخبيثة ووجه تحماق فيه عينان برأقتان حائرتان يكشفان عن غرض سافل ويمان عن هوى مجرم ويترجمان عن عهر مكتوم واستعداد محبوس للشهوات الوضيعة ، لماذا تلجأ الى ذلك القناع وهي تري في نفسها قدرة كافية لأن تجلس مع الرجل وتجادله وتعامله وتسايره محتفظة بجمالها وبعفافها وبشرفها ، معتبرة إياه أخاها لا خصمها ، لانحسب إلا أن القناع على النقيض يزيد في الاغراء وفي الفتنة ويساعد على التهلك وعلى الفساد الخلقى وعلى الغواية ، ولقد أذكر هنا قول المرحوم قاسم أمين في هذا المعنى : « من ألزم لوازم الحجاب أنه يهيئ الذهن في الرجال والنساء معا لتخيل الشهوة بمجرد النظر أو

سماع الصوت » وقال أيضا : « لا ريب في ان استلفات الذهن الي اختلاف الصنف من أشد العوامل في إثارة الشهوة »

وكل هذا متفق وطبيعة الناس وبديهة العقل والمنطق فكما اعتدنا علي شيء الفناء وأصبح لدينا أمرا عاديا لا نأبه له كثير او كلما بعد عنا شيء وحيل بيننا وبين معرفته ورؤيته كلما ازداد لهفنا عليه وتقصيه ، والقناع اذن عامل كبير علي جعل المرأة مغرية للرجل وقد يتخذ في كثير من الاحيان عند كثير من النساء اللعواية والفتنة وللتجميل ، وقد يتخذ ستارا لبعضهن يرتكبن من ورائه ما تسول لهن نفوسهن وما يشاء لهن الهوي بهيدات عن الانظار وعن الاقويل مؤمنات بأنهن في منهزل عن الكاشحين والعذال وعن الشبهات ، من الاحتقار للشرف أي احتقار ومن الزراية بمعنى العفة أي زرايه أن تكون هذه القطعة السوداء أو البيضاء من القماش أو الحرير الشفاف هي ضمان هذا الشرف وهي الحارس على هذه العفة دون أي اعتبار للوازع الخلق ولوحي الضمير وضابط القلب !

إذا كان السفور مدعاة الي تدهور الخلق كما يريد أن يقول بعض الجامدين الذين لا يعرفون في الحياة الا : لا ! فلماذا تكثر حوادث السطو علي الاعراض في المدن عنها في الريف والنساء في الاولى معظمهن وخصوصا الطبقة الوسطي متحجبات متقنعات بهذا الستار الصفيق وبهذا « الحارس القوي الامين ؟

ليس السفور هو الذي يفسد الخلق أيها الجامدون وإنما هو سوء

التربية الحقة الكاملة الذي يخرق كل حجاب ويفتح علي المرأة كل باب من الفساد كما قال بطل الدعوة النسائية المرحوم قاسم أمين تخرج المرأة الريفية سافرة كما قلنا ومع ذلك لا يحدث شاب نفسه أن ينظر اليها نظرة خبيثة ولا هي تقربه منها وتغريه وتبادل الغمز والمزح تحت ستار شفاف بمعزل عن الانظار ، لان كل منهما يري في الثاني أخاه كل يوم فلا حاجة من التغامز والاستشفاف والبحث عن مواضع الجمال وأما كن السحر والفتنة والاغراء ، ومع كل هذا جميعاً فليس السفور مطلقاً يباعث على الغواية والخضوع لسلطان الجمال فليس أسباب الفتنة ما يبدو من أعضاء المرأة الظاهرة كما يقول المرحوم قاسم أمين بل من أهم أسبابها ما يصدر عنها من الحركات في اثناء مشيها وما يبدو من الافاعيل التي ترشدها في نفسها وكم نأمل نحن انصار المرأة ان نري كل نساء مثل المرأة القروية يسفرن عن وجوههن ويمزقن الذي يسمونه حجاباً ويخرجن الي العالم والى الانظار والى الحياة ليعثن في الجو المصري القوة والحركة والنور والجمال والخير وليعطرنه بورود الحق وأزاهير القداسة والجمال والسحر والفتنة ، لقد حان الحين بأن نعيش في صراحة وشجاعة وفي نور بعد أن سئمنا وعفنا العيش في الغموض والجبن والظلام ! نريد أن تخرج المرأة المصرية من محبسها المظلم وعالمها الضيق الى الفضاء الواسع الحر ، لتعرف مركزها وتقدر واجباتها وتعمل مع الرجل في اسعاده وهناءته ومشاطرته البؤس والنعمى على السواء

وتشاركه في العمل على خدمة البلاد وعلى سعادة الانسانية جميعا
وتأخذ نصيبها معه من الواجب حيال الاصلاح الوطني والبعث القومي،
نريد أن تدخل ميدان العمل والانتاج متسلحة بمواهبها النسوية
الراقية وبقدرتها على تجميل الوجود للرجل وعلى بعث القوة والنشاط
في نواحي العمل والانتاج المختلفة ، نريد أن نحس بأثر « رسالة
المرأة » في الرجل وفي الحياة وان نخضع لالهام المرأة ونعمل بوحيتها!
كم نتمنى ونأمل أن نرى منا نساء يبعثن بألهامهن وبجملتهن وبسرهن
عظمة العظماء وفلسفة الفلاسفة وأدب الادباء واختراع المخترعين
ويخلقن بهذا الالهام العالي وبهذا الایحاء القدسي ما خلقت نساء
أوروبا وأمريكا من أمثال «ماركوني» الذي لم يخترع تليفونه اللاسلكي
إلا حينما أقعدته كل السبل عن الاتصال بحبيبته ففكر في خلق هذا
التليفون اللاسلكي الماركوني ليرضي به حاجة نفسه من حبيبته قبل
أن يفكر، أن يرضى به حاجة الانسانية جميعا من نفعه واستخدامه !
نريد اذن أن يبرز نساؤنا الى الوجود الحي ويقمن برسالتهن الكبرى
ويتولين عملية البعث والخلق !!!

كم هو جميل عند ماتري قبيل الغروب جماعات النساء كسرب
الطيور حاملات جراتهن من الفخار في عجب وتيه متوجهات الى النزع
متحدثات في طريقهن بأعذب الاحاديث ، وأين عذوبة الحديث في خير
من النساء ؟

تمشي تلك النساء سافرات الوجوه في حشمة وجلال، مبتسمات في

عفة وكمال ، تتسلسل أشعة الشمس الذهبية الوردية الغاربة بين سقف النخيل وأوراق الصفصاف المتدلى لتقع على وجوههن المنضرة الجميلة فتكسبها حمرة الشمس الوردية جمالا لتعوضها بذلك الجمال عن نضرة النعيم وتترف الغنى ، هذه الوجوه المنضرة الجميلة الناعمة تراها في بساطة جمالها وعفو طبيعتها لا تلجأ الى مسحوقات الكيمياء ولا أصباغ المدنية ، بل هي الجمال كما أراد الله أن نحبه ونعشقه فيه ، لم تفسده يد الانسان ولم تلوثه أصباغ الصناعة ، جمال الله لا جمال الانسان !

ونحب أن نقول بهذه المناسبة ونقرر حقيقة لا نشك فيها هي أن المرأة الريفية من جهة « النسائية أو الانوثة » تختلف كثيراً عن اختها المدنية ، فالأنوثة في الثانية أكثر حياة وقوة وألين رخاوة ونعومة وأشد اغراء وفتنة وسحرا ، وذلك لأنها تحسن طرق الاغراء والفتنة في حديثها وفي حركاتها وفي نظراتها بخلاف اختها الريفية فان جمالها ينقصه « الحيوية » وتنقصه أيضا القدرة النسائية على البعث والخلق والايقاظ ، وهي اذا كانت جميلة لا تحسن كثيراً أن تجعل من جمالها سحرا وفتنة للقلوب وغذاء للعقول ووحيا للأفكار كما قد تفعل جميلات المدن الفاتنات !

سبق ان قلنا ان المرأة الريفية خير شريك للرجل بكل ما تسعه معاني الشركة ، ولكن ماذا تعمل غير عملها العملي في الغيط ؟ يكاد يكون برنامج عملها اليومي المنزلي كالآتي : -- لا تلبث

أن تصحو من نومها حتى تحتلب جاموستها أو بقرتها وتزيل ما تحتها ،
ثم تكنس دارها وتخرج حاملة جرتها لتملأها من التربة . وان كان
لديها فراخ أو ما إليها من بط وأوز تقدم لها طعامها ، وإذا لم يحضر
زوجها في الغداء حملت سلتها وبها غداؤده وتوجهت إليه في الغيط تقدمه
له ، وعند الغروب تخرج كما قلنا الى التربة تغسل أطباقها أو تملأ
جرتها ، ثم تهود لتطبخ للعشاء إذا كان لديها ما تطبخه ، ثم ينقضي
النهار ويهود إليها زوجها . وطبعاً ان كان لديها عمل في الغيط مع زوجها
تشاركه فيه .

هذه الأعمال البسيطة أبغ حدود البساطة في حياة المرأة المنزلية
هي كل ما تعمله المرأة تقريباً في يومها ، لانه من الطبيعي ليس لها
منزل كما نفهمه يحتاج الى التنسيق والعمل الدقيق الطويل ، وفي
فترات راحتها تجلس الى جاراتها في الحارة او في الدار يتبادلان
الأحاديث المختلفة والحديث شجون كما يقولون فيذكرن فلانة التي
ستزوج والاخرى التي طقت والثالثة التي أحضر لها زوجها
جلاية جديدة أو خلخالاً ثقيل الوزن والرابعة التي ضربها زوجها
ضرباً مبرحاً لأنها لم تبع شيئاً مما عندها ليشتري به دخاناً أو شاي ،
وهذه الأحاديث المختلفة لا تخلو دائماً من نيممة أو اغتياب ، وهذه
هي اسوأ ظاهرة خلقية في المرأة الريفية ، كثيرة الحديث ، كثيرة
الشجار لان حدود أعمالها في المنزل قليلة ودائرتها ضيقة ، ففي أي
شيء تقضي فراغها إذا لم يكن لها عمل في الغيط ؟ في الحديث

حيث تجوز به المحبوب والمكروه والمألوف وغير المألوف ، وهي
إذا لم تجد لها عملاً تعمله أخذت تقطع الوقت بهذه الأحاديث
الطويلة الفارغة أو أخذت (تهدد) ان كانت محزونة وتلك تكاد
تكون عادة شاملة في ريفنا كما يقول استاذي الجليل الدكتور طه
حسين !

ظهر لنا الى الآن ان المرأة الريفية خير ما تكون وفاء واحتراما
لرجلها ، تساهم معه في أعماله العملية وتأخذ نصيبها معه في السعي
حول رزقهم وحياتهم ، ولكن ما لون حياتها المنزلية وأعمالها الداخلية
التي هي صلب واجباتها واولاها بالعناية والاهتمام ؟ كيف تدير
منزلها وكيف تسوس مملكتها لو صح أن يكون لها مملكة ؟ كيف
تقوم بتربية اولادها أو بعارة أدق وأهم كيف تقوم بوظيفتها
الكبرى ؟

تعيش المرأة في القرى في منزلها عيشة مهملة قدرة بأوسع
معنى تتصوره من الاهمال والتقذرة ، فهي كما تعلم جاهلة جهلاً فاحشاً
فلا تعجب كثيراً اذا رأيناها في منزلها صورة صادقة من جهلها
وغبايتها ، حتي لو ان نابليون لو كان قد رآها في دارها وحياتها لأصدر
مرسوماً رسمياً بأنكار وابطال ما قاله عن المرأة هذا القول الخالد :
« المرأة التي تهز المهد يمينها تهز العالم يسارها » نعم ! كدنا نياس
نحن أنصار المرأة المصرية من النجاح في ناحيتنا النسوية كلما رأينا
العدد الاكبر والغالبية العظمى بل الساحقة من نساتنا على هذا

الجانب الخجل من الجهل ومن الاهمال ، ولكننا نهال النفس
بالآمال ولا نريد ان ندع لليأس سبيلا الى قلوبنا لانا نوؤمن بسنة
التطور وبقانون الحياة ولو أن تحقيق هذه الآمال فى ريفنا قد
يكون لا يزال بعيداً مستكناً فى بطون الغيب ، وبهذه المناسبة توجه
الى القائمت بالنهضة النسوية وبخاصة الى الزعيمة الكبيرة السيدة
هدى هاشم شعراوى رجاء ماؤه محض الاخلاص وحب الاصلاح
والنهوض الاجتماعى والتعليمى والادبى لنسائنا عامة ، ان يوجهن
جانبا كبيراً من عنايتهن وجهودهن المشكورة المحمودة الى القرى
والى الريف المصرى فهناك يحتم الخطر الويل على تقدمنا ، وهناك
يربض الداء السكين الذى يهدد نهضتنا ويعوقها عن الازهار والنمو
حمدنا للمرأة الريفية مشاركتها للرجل فى اعماله الخارجية
وأعجبنا بنشاطها ووفائها له أبلغ حدود الاعجاب ، ولكن لا يمكننا
أن ننسى أو نغفل ان تلك الطاقة الجميلة من الزهر يتخلل ورودها
وأزهارها السم والشوك !!

تصورى معي ايتها القارئة وأيتها القارىء امرأة لا تزال يدها
ملوثة بأوحال البهائم والمواشي ثم ترضن عليها بالغسيل من الكسل
أو من قلة الماء ، ولا تأنف أن تشرع مع كل ذلك فى عجين خبزها
أو عمل جبنها أو حليب لبنها ، تصوروا امرأة قلما تعرف أن تحوك
جلايتها أو ان تغسلها غسילה ترتاح اليه العين وتميل اليه النفس ،
تصوروا امرأة لا تفهم عن سياسة دارها وتديرها أكثر مما تفهم

من زريبة مواشيتها ، تصوروا امرأة لا تعرف كيف تكون أمًا مطلقا بكل ما تسعه هذه اللفظة الكريمة المقدسة ، تترك اطفالها في فسحة الدار أو في الحارة يعبثون ويتمرغون في التراب وعلى الاكوام حيث هناك مجمع قاذورات القرية وأوحالها من دورها المختلفة ، ولقد تلقى الأم طفلها احيانا في القاعة أو في فسحة الدار ينتحب من البكاء والعيول وتقفز عليه الكتا كيت والبط والفراخ تعبت بهينه وتلعب على وجهه ثم تذهب هي لتقضى حاجته لها أو تجلس الى جماعه من النساء ينلن الناس بالحديث والغيبة ، أما الطفل فليمت أو فليعش (وهو وبخته) ، وكم من الاطفال عندنا كانوا يكونون نابليون أو الاسكندر أو فولتير لو عني بتعليمهم ولو عنيت بهم أمهاتهم في عهد الطفولة وتعهدتهم في هذه السن التي يتأثر بها الطفل بما تلقنه له وما توجهه اليه وتعامله به أمه ، فليس من أحد على ما نظن ينكر أثر الام في ابنها ، وهذا نابليون يحدثنا عن أمه وعن أنها الاثر الاول والعامل الاقوى في عظمته وفيما صار اليه اسمه وصيته ، ولكن هل ننتظر من أمهاتنا وخصوصا في الريف ذلك الاثر وهذا الواجب ؟

كدنا نياس حقا أيها القائمت بشئون المرأة ولو أننا نؤمن بأن لا يأس مع الحياة كما قال المرحوم مصطفى كامل ! هنا يجثم مرض وبيل وداء خطير كما قلنا يهدد كياننا القومي وأسرتنا وأطفالنا وناشتتنا نخشى ان يفتك بمجموعنا ما لم تمتد اليه يد الاصلاح والعلاج ،

فوجهن عنايتكن قبل كل شيء الى موضع الداء الكمين الخطر
هنا، الى المرأة القروية التي تحيا حياة كلها جور وأهمال وجهل
وقذارة نخجل ونبكي عليها ومن أجلها، فيارجالات مصر ويا أنصار
ونصيرات المرأة ! عطنا ولو قليلا على القرى فهناك يكمن الداء
وهناك يجثم الخطر وينتشر الوباء، تلك وصمة كبيرة في جبين
فخارنا القومي ان يرضاها نصير للمرأة فاعملوا يا أنصار المرأة على
ازالتها لتمرزقوا صحيفة عار وخزى في سجل نهوضنا القومي واصلاحنا
الشامل وأحيائنا المصري !

نريد الآن بعد ان كشفنا عن ناحية من نواحي حياة المرأة
الريفية ان نصور تلك الناحية الداخلية البحتة للمرأة في الريف وهي
الحياة القروية الزوجية

نظن أنه قد أصبح يسيرا علينا الى حد ما أن نتصور تلك
الحياة الداخلية مادما وقفنا الى حد ما أيضاً على حياة الرجل ونفسيته
ومركز المرأة وحياتها في القرى، وهذه الحياة الداخلية النفسية
قد تصح أن تكون المقياس الذي يساعدنا على تصوير وفهم الحياة
القروية عامة وبخاصة الداخلية منها تصويرا وفهما أقرب الى الصدق،
وبهذا يمكننا أن نستجمع ونحصل فكرة ما عن هذا الجانب من
الحياة المصرية المجهول أو الغامض لمن لا يعرفه أو لا يريد أن يعرفه
والا فآين توجد حياة أغزر مادة للكاتب وأوسع دائرة لخيال

المصور وتأملات الفنان من حياة تجمع الرجل والمرأة تحت سقف واحد يعكس كل منهما على الآخر خلقه وذهنه ومذاهبه ويتبادلان الاخذ والعطاء ، وحيث تبدو فيها حسنة كل منهما وسوأته بارزة للنقاد وواضحة جليلة لريشة المصور ؟

ذكريا حين تحدثنا عن الرجل في الريف انه لا يكاد يفقه أو يشعر بمعنى « الحب » الذي قد نفقه هنا ونشعر به ونقدره ، ونريد الآن هنا أن نشارك المرأة أيضا في هذه الصفة أو هذه النفسية الشهورية . فهي بعيدة كل البعد عن حياة « الحب » غريبة عن الشعور به شعوراً سامياً نبيلاً يحرك عواطفها بأبلى المشاعر وأسمى المعاني ويرقق خلقها ويهذب كائناتها ويملاً وجودها حياة وقوة ونوراً ، هي كأخيها الرجل لا تفهم من الحب إلا ذلك الضرب الخبيث من الاستغواء البنسي والاهذا النوع الحيواني من أسفل دركات الحب ، فهذا القلب الذي يسكن بين جنبيها لا يخفق بالحب السامي الخالد في نبله وفي علمائه ولا يكون رسول رحمة بالناس أو طبيب أدواء الرجال حتى لو استفحل الداء وعظم المصائب

يقول « جوت » فخر الالمان « ماقيمة العالم بأسره في نظر القلب اذا ما خلا من نعمة الحب ؟ » ولكن المرأة الريفية المصرية بخاصة لا تقوم بوظيفة قلبها الذي منح لها ليخفق وليطرب وليحب، ولذلك فقيمة العالم عندها شيء كلاً شيء وعدم كوجود ، واذا كانت حياتها هكذا من الجمود الروحي ومن الموت الشعوري ومن البلادة

في الحب وفي العاطفة فهل نتصور أن يكون لها حياة روحية بجانب تلك الحياة المادية الكثيفة تعيش فيها بقلبها ومن أجل قلبها لتجمل وجودها وتزيد حياتها خصبا وانتاجا ونورا ؟ وماذا تكون تلك الحياة التي يحياها الناس لو لم تكن خصبة منتجة منيرة ؟ وكيف لنا أن نصبر على مفضض حياة لا نشهر فيها بحب يخفف عنا آلام تلك المرحلة من العمر ويفدو عواطفنا وميولنا وذهننا ، ويخلق عبقريتنا ونبوغنا ويوقظ خامد شعورنا ، وينسينا مرارة الزمن وقسوته وهموم العيش ونكدده ويجعلنا نهزأ بالشوك ونسخر من الألم وتتلذذ بالعذاب ونستحلى العلقم والصاب ؟ وكيف لنا ان نعاني من هذه الحياة ما نعاني ونرضى بنكددها وبظلمها وبشقائها صابرين مرغمين ثم لا نحس بأن لنا قلوبا في حاجة الى أن تتحقق والى أن تحب وخلقها الله لتنمو وتنهل من نبع الحب وتزدهر وتحيا في رياض العشق ، فحجرونا عليها إنما هو تعطيل لوظيفتها وجود وكفران بنعم الخالق الاعظم ؟ ومتى كان الحب كفرا والعشق البريء جريمة في أسفار الله المقدسة وفي شرائع العدالة ؟

ولمن اذن خلق نور القمر وندى الازهار وعبير الرياحين وظلال الشجر وزقزقة العصافير ونوح الحمام وغناء البلابل ورجرجة الماء ومداعبة النسيم

اذا لم يكن للحب ، واذا لم يكن للأخوين الحبيبين ، الرجل والمرأة ؟

إذا لم تكن حياتنا التي نحياها حياة قلوبنا وعواطفنا وشعورنا وأرواحنا فانا لنؤثر أن تنتزع منا هذه القلوب التي لا تخفق ولا تحب حتى لا نشعر بوجودها بين جنوبنا معطلة خامدة ذليلة أسيرة ، وحتى لا نطأ على الرأس ذلة وصغاراً أمام ظلال الشجر ونور القمر ورجرجة الماء !

فلتأخذ منا طائعين راضين ان عاجزت عن القيام بوظيفتها وواجبها ، فلن نريدها أبداً لعب الاطفال ولا عرائس الصبية ، ولن نذرف عليها دمعاً !!!

ونعود الآن الى موضوعنا ، اذا كان هذا هو حياة الرجل والمرأة في الريف من ناحية العواطف والشعور أو بعبارة أدق من الناحية الروحية فهل ننتظر ونتصور ان تكون الحياة العائلية الريفية مدعمة بالحب قائمة على التوافق والرضى من ناحية الجنس؟ ولكن كيف لنا أن نسأل هذا السؤال وننتظر هذا الجواب ونحن نرى أن معنى « الزواج » في مصر عامة وفي القرى بخاصة لا يفهم منه أكثر من أنه وسيلة أو بمعنى أصح معمل لتفريخ النسل كعامل السكتا كيت ، فالزوج او الزوجة اذا تعطل هذا المعمل عندهما أو ابطأ في التفريخ والتخريج صبا اللعنات على الزواج واستغاثا لله وللأولياء وللعرافين والدجالين أن ينتظم هذا « المعمل » وأن يعاود حركته وأنتاجه ، حتى أصبح الحرص على أنتاج هذه « المعامل » شهوة متحركة

مستبدة بأمورها لدى الكثير جداً من أبناء مصر المتزوجين وبخاصة
الريفيين والريفيات منهم .

ومن أشد المصائب والنكبات التي تتألب على هذا الفلاح أن
تجد له ما لا يقل عن خمسة و ستة اولاد وقد يبلغون أحيانا ثلاثة عشر
او اربعة عشر ومع ذلك قد لا تجد في بعض الاوقات رغيفاً في داره،
فاذا حدثته بوجوب تحديد النسل بحسب الرأي الطبي جلبا لمنفقتة
ودراء للشقاء واللبؤس عنه لوى وجهه عنك وقد يتهك في دينك أو
في عقلك وشعورك !!

لا يفهم كثير عن الزواج في مصر الا أنه وسيلة الى اشباع
الشهوات الجسمية وأرضاء حاجات البدن والحس ، والا أنه طريقة
من طرق الاستثمار والاستغلال والتجارة بافتيات الطاهرات البريئات
من أساليب ومن ظلم وتحكم الآباء والامهات !

ما العلاقة بين المال والقلوب والمستقبل أيها الآباء المجرمون
في حقوق أولادكم : وما معنى زواج تزيفون به ما تسمونه وثيقة
الزواج افكاً وزوراً ؟ دون ان يكون للزوجين وحدهما رأي في
هذا الزواج ؟ وما معنى زواج تزف فيه مجهولة الى مجهول وتساق
فيه الفتاة البريئة سوق الانعام الى من تجهله وقد تبغضه ؟

ومن المدهش حقاً أن نجد الناس هنا في مصر حتى في الريف
اذا شاءوا أن يشتروا حزمة من الفجل أو السكرات أو أقة من
اللحم أو أي صنف مما تعودوا ان يأكلوه أو يشربوه لأشباع بطونهم

وتغذية جسومهم حرصوا جد الحرص في انتقائه ونقده بين الرفض والقبول وتغليب الذوق الفني في الأكل أو في الشرب أخيراً ثم أخذوا يساوون البائع ويجادلون التاجر ليغلبوه على رأيهم ، ولكن اذا شرعوا في الزواج مسألة المسائل ومشكلة المشا كل ومفتاح المستقبل الغامض اندفعوا كالمسعورين او كالعمي الذين لا يبصرون دون ان يحققوا وينقدوا كما كانوا يحققون وينقدون حين كانوا يتتبعون الفجل او البقول ، فكأن بطونهم أغلى لديهم وأسمى من من قلوبهم ومن ارواحهم ، وكأن الحاضر لديهم أولى بالعناية من المستقبل وكأن الزوجة او الزوج لا يتساويان في السوق مع الكراث او البطاطس ، واخجلاله بل واحسرتاه !!

ولقد يحضرني هنا قول المصلح الأول المرحوم قاسم أمين في هذا المعنى هذا القول المقتطع من قلبه والمنبعث من روحه ، قال رحمه الله : « أرى الواحد من عامة الناس لا يرضي ان يشتري خروفا او جحشا قبل ان يراه ويدقق النظر في أوصافه ويكون في أمن من ظهور عيب فيه ، وهذا الانسان العاقل نفسه يقدم على الزواج بخفة وطيش يحار أمامها الفكر »

واذا كانت هذه الحال وهذه الفكرة ستدوم فستشتد أزمة الزواج عندنا تعقيداً وقحطاً مادام هذا الزواج التجاري يهدد العائلات ويبعث الفساد في البنين والبنات ويقوض الاسرة ، وم أحب هنا أن اذكر قول « ما كس نوردو » في هذا الموضوع

قال « متى بطل النظر الى المصالح المادية في أمر الزواج وعادت المرأة مختارة في ميلها غير مضطرة الى بيع نفسها. وأصبح الرجال يتنافسون على أحرار ودها بذواتهم لا بأموالهم ووظائفهم، فحينئذ يصبح الزواج حقيقة نافعة لا اكدوبة فاضحة كما نشاهد في عصرنا هذا وهنالك ترفرف روح الطبيعة السامية على الزوجين وتبارك كل قبلة من قبلاتهما، فيوضع الولد محوطا بهالة من حب أبويه وتكون هدية يوم ميلاده، تلك العافية التي يورثها ذريتهما زوجان كلاهما مستجمع من صفات جنسه ما يحبب فيه قرينه »

ونريد الآن بعد هذا أن نتحدث عن الزواج في الريف لنكمل الى حد ما « الصورة الريفية » ، ولكن اذا أمكننا أن نقف على « الحب » عند الرجل والمرأة على السواء في ريفنا حين تحدثنا عن هذا قبل الآن فيمكننا بكل يسر وسهولة أن نتصور وأن نفهم لون الزواج وطريقته في الريف

فتى طيب وفتاة بريئة لا يعرفان من أمر بعضهما شيئاً ، وقد يكون كل منهما مجهولاً للآخر كل الجهل ، هذا في الشرق وهذه في الغرب ثم يسمعان أولاً يسمعان أنهما مخطوبان وأنهما سيصبحان زوجين وسيعيشان معاً تحت سقف واحد وسيكونان عضوي شركة روحية أبدية وسيصيران رأسي أسرة

لماذا كل هذا ؟ لأن الآباء أهون لديهم طعنة الخنجر وضربة الرصاصة التي تصمى وتقتل من أن يعرضوا فئاتهم لخطيبتها وشريكها

في الحياة وفي المستقبل الذي هو ملك لهما وحدهما حتى يعرف من أمرها ولو بعض الشيء وتعرف هي منه ولو بعض هذا البعض ، ولا يزالون الآن يعدون هذا فجورا دونه أي فجور وبدعة ليست بعدها بدعة أتت بها عصور المدنية المتحضرة الماحدة الفاجرة ، والفتي المسكين يقبل هذا مضطرا ليوفر على نفسه عناء البحث

ومن المدهش بل من الاحتقار للعقول والنهضة الكبرى ولا مال المستقبل ولبناء عهد جديد وإنشاء جيل جديد، من الاحتقار كل الاحتقار لمبدأ الحرية الفردية وللشعور بالذات وبالكرامة أن تبقى مثل هذه الفكرة الجامدة التعصبية وليدة الماضي المظلم في هذا العصر المتأهب للحياة في أجواء الحرية والنور والعدالة واحترام الشعور والعمل للمستقبل ، من الاحتقار كل الاحتقار « لوعي الإصلاح » ورسالة الأحياء والبعث المصري أن تبقى هذه الفكرة سائدة في أجواء الأسر المصرية وبخاصة الكبيرة منها ، وفات هؤلاء جميعاً بأنه لو سرنا على هذا النهج طويلاً فسندقضي عاجلاً أو آجلاً على نظام الأسرة وسندساعد بذلك على جعل البيوت أدياراً وصوامع للفتيات الراهبات أو على جعلها مسارح للهو والفساد والمجون المتهم ، وسندشجع الفتيان والفتيات على الزواج ، ولكن غير الرسمي ، أو بعبارة أدق وأجلى على قضاء حاجات نفوسهم وقلوبهم التي منعها عنهم الزواج الاسمي المعروف ، وفيما نراه الآن أمام أعيننا كل ساعة ما يزيد في خوفنا وقلقنا على الحياة العائلية المصرية التي

نريدها منبعا للسعادة ومصدرا للنعم والوفاء والحب ، ويظهر لنا أن الآباء والأمهات لم يتعظوا إلى الآن بما يحدث نتيجة هذه الفكرة الجامدة السخيفة في عصر لا يتفق مطلقا وكلمة الجود أو الظلام وأنهم لا يزالون يتعجألون وينسون بأنه لا يمكن — كثيرا — لفتى أو افتاة يحترم كل منهما نفسه ويقدر مركزه وآماله ومستقبله أن يقبل على زواج أعمى مبنى على الخفاء والظلام بدون أن يعرف ويفهم كل منهما الآخر معرفة وفهم الشريك للشريك ، ولسكننا نؤمن كثيرا بأن الأيام وبأن المستقبل وبأن الحياة نفسها ستضطرم جميعا على العدول عن فكرتهم التي لا تتفق والحاضر ، وسترغمهم على أن يسلكوا الطريق التي يجب أن يسلكها من يفهم الحياة ومن يدرك سنة التطور التي تهيمن على العالم والتاريخ جميعا !

ولسكننا لا نريد أن نترك هذه الفرصة قبل أن تقرر هنا حقيقة نؤمن بها ونحرص على أثباتها في سبيل الحق وحده ، وهي أن هذه الفكرة التي نتحدثنا عنها أثر أو جانب الجود فيها أقل في الريف بين الطبقات الصغيرة جدا منه بين الأسر الكبيرة الريفية أو المدنية ، فلقد قلنا أن الفلاح ونقصه به هنا الصغير جدا كما أشرنا إلى ذلك في « المقدمة » يعمل مع المرأة والفتاة في كل نواحي العمل وهي سافرة ، أى أنه في زواجه يكون في الغالب قد رأى زوجه وهذا إذا كانت من قريته أو من عائلته وإلا فلا يمكنه مطلقا أن يراها ، ولكن نحن نفترض هنا أنهما ليسا من قرية أو بلدة واحدة ولا

من عائلة واحدة ، أي نفترض ونتصور الحالة التي فيها حرية اختيار الزوجين محرمة تحريماً مطلقاً ، فإذا كان حال الزواج هكذا فماذا يبقى إذن من معنى الزواج الذي نفهمه هنا أو الذي نتطالع اليه وننشده ؟ بعد أن يدبر الآباء مكيدتهم في كهف الخفاء والظلام ويعزمون على الاعتداء والعبث بمستقبل فتاهم أو فتاتهم ، وبعد أن ينتهيا إلى رأي أخير وبعد جريمة الاعتداء على قلبين بريئين ، بعد كل هذا وأخيراً يعلم الخطبيان بخطوبتهما فيقابلان هذا الخبر بصمت ووجوم ولكن في أسى كمين أو حزن دفين ، ثم يؤتى بالمأذون المحرم الثالث بتلك العمامة الكبيرة التي يغش البسطاء والتي قد تطوي بين تلافيفها خير ما وصل إليه الناس من لؤم ونصب وكذب وتزوير ، يؤتى بذلك المحتال الذي يوهم الناس بأنه أرسل من عند الله ليبارك هذا الزواج فيذكرنا بذلك « البابا » الذي أرسل رسوله لبيع للعباد « صكوك الغفران » ودخول الجنة الموعودة ويمحو سيئاتهم ويعفو عن خطيئاتهم ، فإذا ما ذكرت هذا المحتال الكذاب وذلك « البابا » النصاب ذكرت قول « روسو » : « ما أكثر الوسطاء بيني وبين الله ! » ، يؤتى بهذا المأذون ليكتب تلك الني يسمونها « وثيقة الزواج » ويوهمون الناس وأنفسهم أيضاً بأنها عقد نتج من توافق الارادتين ومن رضى الطرفين المتعاقدين ، قتل الانسان ما اكذبه وما اكفره ! هل هذه الورقة حقاً هي صدي شعورها الحق ومراة حبيها ومظهر ارادتها ورضاها لهذه الحياة الجديدة المليئة بالمسؤوليات

الجسام وبالأعباء الفادحة والواجبات الكبيرة ؟ هل هذه القطعة من الورق هي الرابطة بين قلبين متحابين وروحين سندمجين لأعداد عهد جديد وتحقيق آمال كبيرة ؟ هل هذه الورقة هي كل ما نفهم من الزواج حتي اذا ما حبرها المأوذن وشهد الشهود كان الزواج وصدق العقد وكان عملاً قانونياً مشروعاً صحيحاً ممثلاً الارادتين حق التمثيل ؟ ما هذا العبث بالقلوب البريئة الضعيفة أمام قوة المسكر وسطوة الكذب ودولة التفرير والخداع ! ما هذا الاعتداء على أجسام غضة طرية وأرواح ساجدة حاملة في آمالها وفي مستقبلها ونفوس طاهرة كريمة لم تعرف الخبث والاحتيال ولم تتعود بعد احتمال الاذي والصبر على المسكروه والبلاء والقوة على أساغة الكذب وتجميل النصب ؟ وهكذا تكتب وثيقة الزواج في معمل الكذب والزوير وليس للخطيبين أي شأن فيها مباشر ثم يعان للناس ويداع ان فلانة خطبت الى فلان وان ليلة الزفاف يوم كذا كأن الامر جد لا هزل وصدق لا كذب وحقيقة لا تدجيل وعدالة لا ظلم !

وبهذه المناسبة لانجد غضاضة أن نجرأ برغبة نوؤمن بعدالتها وبوجوبها إيماناً قوياً مكيناً لنصلح من نظام أسرتنا بحيث يساعد على تسهيل الزواج وجعله وسيلة الى الحب والى السعادة ، وتلك الرغبة القوية هي أن ننظر الى الزواج كأنه عقد مدني كأني عقد ونتمه بكل اجراءات العقود المدنية فيتم مثلها بالايجاب والقبول ، واذن فنستغنى عن هذا العدد الوفير من المآذين ونستغنى عن وساطتهم

ونأمن المطرق التي يتفنون فيها والتي ليست من الشرف ولا من الدين الحق في شيء ، ونسهل بذلك عملية الزواج ونضمن توافق الارادتين ومعرفة الزوجين بعضهما البعض ونأمن تعسف وتجارة الآباء والامهات بابنائهم وبناتهم ، وفي هذا خير وأمن واصلاح كثير !

والآن وبعد كل هذا نريد ان نصور في حدود خطتنا التي رسمناها لانفسنا طريقة الزواج أو بعبارة أدق وأصح ليلة الزفاف في الريف عند فلاحنا المصري الذي نقصده والذي نكتب هذه الرسالة في سبيله ومن أجله وحده .

في ليلة الزفاف الموعودة تزف العروس الى العريس زفافا لا يخلو من البساطة ومن الجمال الريفي أيضا ، وقبل أن يذهبوا بها الى دار زوجها ينقل عفشها عصر يوم الزفاف اما على جمال أو على (عربات الكارو) وحول العفش ومعه تذهب جماعة من أهل العروس واصدقائها ويطلقون الرصاص في الجو اظهارا لفرحهم واعلانا لسرورهم ، والنسوة في طول الطريق يغنين أغنيات الريف الجميلة في بداوتها ، وبعد ذهاب العفش الى دار العريس وبعد الاحتفال به وزفافه يجيء دور العروس فتملأ دارها بالنساء وبالمفتيات وبالاطفال الذين يركبون كل مركب خشن الى الوصول الى العريس ايروها في زينة زفافها وفي جمال هندامها ولو يصل بهم الحال الى تسلق الخائط والتطلع من ثقب الباب أو ثغرة في الجدار أو فجوة

في السقف ، ولكن قد نسيت ا قبل يوم (الدخلة) أو ليلة الزفاف هناك ليلة أخرى لها خطرها وجلالها وعظمتها وهي « ليلة الحنة » (الحناء) حيث يخضبون أيدي العروس ورجليها بعد اغتسالها واستحمامها وهناك في هذه الليلة تجتمع كل فتيات القرية وأطفالها ليتبركن من حناء العروس ، والفتاة الناعمة التي زين لها شبابها وصباها وجمالها أن تفكر في الزواج تنافس أخواتها الاخريات على (قرص) العروس في فخذها قائلة لها : « قرصتك في ركبتيك حصلتك في جمعتك » ظناً منها أو أملاً لها بأنها ستصبح قريباً عروساً مثلاً حيث تستمتع بشبابها وتحظى برجلها بغيتها ، وعندما تعد العروس للخروج الى دار زوجها ووداع دار ايها التي ترعرعت فيها طفلة ثم فتاة وصبية في احضان الشباب الناعمة الدافئة ، فاما أن تحمل على جمل يغطونه بملاءة حمراء في شكل خيمة أو مثلث وتجلس هي فيه ، ثم يزينون رأس الجمل ورأس المثلث ببعض الورود الحمراء أن وجدت ثم بسعف النخيل المتعالى المتراوح حول العروس وفوقها وهي في هذه الحال مع بعض أهائها أو صديقاتها ، ثم يخرج وراءها على جمال أخرى أو عربات — لو وجدت ولو كان اصحاب العرس ذوي يسار قليلاً — بعض نساء القرية وفتياتها زميلاتهن في عهود الشباب المرحية الالهية بلباسهم الصفراء الجديدة وجلالهم السوداء الشفافة ومن تحتها الجلايب الحمراء أو الصفراء ، وقبل أن تخرج العروس من دارها الى دار زوجها يقف أحد أخوانها أو اقاربها على بابها ولا

يسلمها لاحدا حتى يأخذ في يده ما يسمونه « الباصة » ولا يمكننى
وانا اخط الآن هذه السطور أن أجزم أو أنكر استمرار هذه العادة
القديمة في ريفنا وبين المراتب الدنيا من مراتب فلاحنا ، ولكنى
شاهدتها بعيني في بعض افراح هذا الصنف من الفلاح الذي اقصده
والذي أذيع هذه الرسالة من أجله وحده ، وأذكر انى قرأت
للمرحوم فتحى زغلول باشا وصفا جميلا للافراح الريفية وذكر
خاصا لهذه العادة التى اذكرها هنا وأصفها ، فن المدهش اذن حقا
أن تبقي مثل هذه العادة المستنكرة في افراحنا والاتكفى المدة بين
كتابة فتحى زغلول وبين عصرنا هذا المحو وسحق مثل هذه العادة
الريفية : ولكننا نأمل أن تنقرض بفعل السنين والزمن ا

وعندما يخرج هذا الموكب يحيمون العروس بطلقات نارية ذاهبة
فى الجو وتكاد تصم الآذان من الضجة ، ثم تتف جماعة من الرجال
بين حين وحين تلهب يالوصا أو النبوت وهي ما يسمونها « لعبة
الخطب » التى ذكرناها ووصفناها حين تحدثنا عن حياة اللهوى ريفنا ،
وهذه اللعبة على بساطتها وريفيتها وبدائيتها لا تخلو من جمال ولا من
لذة فهي ضرب جميل من ضروب الشجاعة القديمة ومظهر من مظاهر
التخوة والرجولة ، ويمحي هذا الموكب أيضا جماعات من الفتيات
والنساء يزغردن فى الاجواء ويفنن جماعات (CHORUS) أغانى
لا تخلو أيضا من جمال ، احدهن تغنى والاخرىات يتبعن بصوت واحد
له جماله وفيه حسنه ، وعلى هذا الضرب من السير يسير موكب

العروس حتى تبلغ دار عريسها وهناك ينتظرها العريس أو أحد أقاربه أو اخواته فيحملها بيده ويدخل بها الى الدار

هذا موكب العروس ، أما العريس فمن الصعب جداً أن تجده

أو تراه يوم العرس وبخاصة في عصر اليوم أو في مغربه ، فهو يحاول أن يخفي نفسه عن العيون ، وقبل اسبوع أو اسبوعين ليلة الزفاف يدعو أحد اصدقائه الخالصين المقربين اليه الى داره للاستحمام والاغتسال عنده ، فاذا كانت ليلة الزفاف الموعودة أخذ هذا

الصديق الداعي ملابس العريس الجديدة من عصر اليوم تقريبا ، وفي ساعة الاستحمام يكون أهل القرية جميعا قد علموا بذلك فيذهبون

الى دار ذلك الصديق الداعي ويجلسون منتظرين خروج صاحبتنا العريس ، فاذا ما انتهى من عمله وانتهى الحلاق من تزيينه وتجميله

خرجوا به وسطهم رافعين الشموع والمشاعل أما على أيديهم وأما على رؤوس عصيهم الخليظة وأما في (شمعدانات) بسيطة أعدوها

لذلك ، وصاحبتنا العريس في الوسط أو « واسطة العقد » كما يقول ابن الرومي ، يحمل منديلا أبيض في يده يسد به فمه وأنفه وحواليه

عشيرته وأهله وأصدقائه مخضّب اليدى بالحناء ، وفي هذا الجمع العديد المؤلف من الرجال والنساء يؤتي بعض أصدقائه الذين

يحسنون فن الغناء والذين وهبهم الله نعمة الصوت الجميل فيتناوبون مما غناء « المواويل » التي تدور جميعا حول الغرام والمغرمين

وعذاب الحب وشكايات المحبين ودلائل ذوات الجمال ومالكات

القلوب واستبدادهن وعيشهن بما يمتلكن من قلوب الرجال وبخل
الجماليات بجمالهن وقلوبهن التي لا تعرف الى الرحمة بمشاقها سبيلا ،
وبين الحين والحين تطلق البنادق في الجو بعد الفراغ من القاء
الواويل ، ثم تنثر النساء بدرات المالح على الرجال في الموكب الزاخر
خوفا من الحسد كما أظن ، ثم يستمر الموكب على هذا النهج حتى اذا
وصل او اقترب من دار العريس ومعه أسدقاؤه دفعوه بقوة وجرروا به
بسرعة وانسلوا به بين الجمع العديد الى داره وأدخلوه الى «قاعته» التي
خصصها له أهله هو وزوجته فيأخذ بعد ذلك في فض بكرة العروس
أو مايسمونه أخذ الفلاح ، أما هم فيقفون بالباب أو خارج الدار
ينتظرون خروجه على مضض ويتمجلونه في أمهات وتليفات ببعض
أغاني ساقطة لا تخلو من وقاحة ، فاذا ما دخل هو عند عروسته وجد
عندها جماعة من النساء من قريباته وقريباتها ، أتبن يشهدن كيف
يقوم بهذه العملية الفنية التي هي لديهم من أحسن المشاهد جمالا
وأبرها فتنة ، ولست أدري أى مشهد يكون مشهد فتاة بكر تفض
بكرتها على مشهد من المتفرجات المهجبات بهذا المنظر الجميل الفني
البديع كأنهن يشهدن رواية تمثل أو لعبة تلعب ، ولست أدري
ماشعور تلك الفتاة البريئة حين ترى نفسها في هذه الحال المخزية
التي لا تتفق مطلقا وأبسط صنوف الشعور والذوق والأخلاق وحين
ترى نفسها ماتي الانظار وهدف الابصار ؟ ومن المؤلم جد الألم أن
هذه الصورة الفاحشة المخجلة المزرية لا تزال الى الآن مستعملة في

بيوت الكثيرين جداً من الريفيين ، ولا يزالون ينظرون إليها نظرة
الاعجاب والاستحسان ، وحجة هؤلاء النساء اللاتي يرتكبن هذه
الفاحشة المخجلة أمهن حارسات على عفاف العروس شهداء على طهرها
وشرفها ، ياله من اعتداء صارخ على العفة والشرف !

وإذا حدث أن العريس لم يحسن هذه العملية لطمته « الماشطة »
وأنتهت عن العروس وقامت هي بعملية فض البكارة ، مشهد مخجل
فاحش يذكرنا دائماً بحياتنا التي نعيشها وبقائنا في هذه الوهدة
العميقة من التأخر والانحطاط ، وأخشى أن أقول : الوحشية

وفي أثناء هذه العملية المهمة يتساق الاطفال والفتيات حائط
الدار وينظرون من ثقب أو فجوة الى هذا المشهد الجليل : مشهد فتاة
عذراء تفض بكارتها على مرأى من جميع من المتفرجات الحارسات
الشاهدات ! ثم يخرج العريس ظافراً منتصراً من كفاح تلك
العملية فيقابله أصدقه وأهله بالقبلات والاحضان وتستقبله البنادق
بالنيران والطلقات والنساء بالتهليل والزغاريد ، وفي اليوم الثاني
تطوف جماعات من النساء في القرية جميعها حاملات قطعة بيضاء
من القماش ملطخة بدم العروس الذي هو مظهر شرفها وشارة عفافها
وحجة طهرها حتى يرى أهل القرية جميعاً أمانة الفتاة على شرفها
وحرصها على طهرها ، وهن في هذا التطواف يغنين بعض الاغاني
الريفية الملائمة لهذه الحال مثل : « بيضت الشاش يا عروسة ! »

تلك صورة مقتضبة موجزة من أفراح القرى ، ويلاحظ اني

أتحدث هنا عن أسفر مرتبة من مراتب الفلاح المصري كما أخذت نفسي في كل نواحي الرسالة وكما أشرت الى ذلك في مقدمتي ، ولقد دعاني الى اختيار هذا النوع من الفلاح المصري علمي ومعرفتي بأنه يكون في الوحدة القومية المصرية الاغلبية الساحقة على حد التعبير الدستوري

ذكرنا قبل الآن أن كلا من الرجل والمرأة في ريفنا المصري ينظر الى الحب ويفهمه بنظرة واحدة وفهم مشترك ونحن نأخذنا عن هذا اللون من الحب كثيراً وقلنا أكثر من ذلك ، قلنا أيضاً بأنه يندر جداً أن يكون زواج في الريف نتيجة لعواطف متشاركة واحساسات متبادلة وشعور بالحب والوفاق والميل ، وقلنا ان الزواج في مصر عامة وفي الريف بخاصة رجعي جداً على أقدم نظم الجود ووسائل الرجعية ، وبأن نظام هذا الزواج على ما هو عليه في عصرنا هذا لا يتفق مطلقاً وروح العصر الحديث ولا مع ميول الناس وتوجيهات عقولهم ومشاعرهم فمن الواجب علينا أن نبحث عن علاج واصلاح لهذا النظام الذي يشوه من جمال نهضتنا ويكاد يهدد بيوتنا وعائلاتنا ويقضي على آمال شبابنا في المستقبل ويشجع على الفساد والغواية أولئك الذين يمنعهم هذا النظام الاعرج الفاسد أن يعيشوا العيشة الزوجية الهادئة السعيدة المحترمة !!

واذن فقد أصبح من اليسير علينا — كما نظن — أن نتعرف الآن ونفهم ونتصور الحياة الزوجية القروية الداخليه ، فاذا كانت

هي كما قلنا نتيجة الصدف والقسر والأرغام أحيانا لا نتيجة الحب والتعارف وتبادل الاحساس واشتراك الميول والمواطف كما نفهم نحن من الزواج المصري وكما نريد أن يكون في مصر جميعا، فلا تعجب كثيرا إذا رأينا أن هذه الحياة الزوجية الداخلية لا تخلو دائما من نضال وعداء وتجاذب الزوجين، فالمرأة هناك قل أن تنجو من الضرب والاهانة والتعذيب لأنها الأسباب وأبسط البواعث تصور معي أن الرجل قد يوسع امرأته ضربا بالنبت وما أدراك ما النبت ! وذلك لأن إحدى نساء القرية قد أتت تشكوها إلى زوجها، أو لأنها تحفظ وتدخر لديها بعض نقود له فيحدث أن تمتنع أحيانا عن أن تعطيه ثمن لقافة تبخ إبقاء على نقوده من الضياع وتوفير الشراء وقضاء الحاجات المنزلية الأساسية الأخرى، تصور أن الرجل في ريفنا يجد في مناداته لزوجته باسمها عاراً له وتنقيصاً من قدره ومن سيادته وسلطانه وكرامته فلا يناديها دائماً إلا بهذا النداء العجيب المتكبر الصلف : يا بنت !

وإذا ما جلس إلى اخوانه أو أصدقائه في مجلس وأراد أن يذكر زوجته فتأبى عليه النعرة والكبرياء إلا أن يقول : الأولاد أو العيال خوفاً من أن يقول زوجي أو حرمي أو ما اعتاد المتعلمون المستنيرون أن يقولوا !

وتصور أيضاً أنه إذا استولد بنتاً وجم وعلت وجهه الكآبة والأسى لأنه كان يريد ولداً لأنه ينظر إلى البنت وإلى النساء عامة

نظرات احتمار وازدراء ، وأنقاص ، ولأنه يرى في النساء عامة رأي صاحبا « المعري » : « باعثات ركابك في مهالك مقمات » « فوارس فتنة أعلام غي » « يلدن أعاديا ويلدن عاراً » « إلا ان النساء جمال غي .
بهن يضيع الشرف اتلید »

بمثل هذا المنظار الاسود الظالم ينظر فلاحنا الى المرأة ثم تصور معي أخيراً حياة زوجية تستفتح صباحاً عند مطلع الشمس الخيرة المحسنة بأبفض الحلال الى الله ، بالطلاق كما قال النبي الكريم ، ولا يستحي الرجل ولا يتعفف ولا يتحرج أن يقسم بالطلاق مرات ومرات ثم يستأنف حياته الزوجية كأنه لم يفعل شيئاً يمنع هذا الاستئناف بل يبطله ويبلغيه وفي هذا يساعده ذلك النصاب الكبير أمس البلاء كما قلنا : المأذون نظير رغيفين أو دعوة عشاء أو كيلة اذرة لكم من الفلاحين من اذا حادثته عن أي شيء اتسم لك في الحال بمن الطلاق مرات ومرات في هذر وجده ، في عمله وسمره في سلمه وحربه ، في حديثه وغير حديثه بطلب وبغير طلب ، وامراته المسكينة قابضة في دارها أو مزاولة أعمالها في حقها أو في بيتها تجهل كل شيء عن زوجها ، تجهل انه يبيعها ويهدمها ويقضي على أولادها ويتصرف فيها وفي ابنائها الصغار كيف تشاء أهواؤه وتريد جهاته تجهل أنه يعيش معها في حرام يبعضه الله ويمقته أو بعارة أدق وأجلى تجهل أنه يعيش معها لا في زواج حلال بل في زنا محرم فاجر وكل

ما ترتب على هذا الفساد والحرام فاسد حرام فساد الفرع من الاصل
والبناء من الجدار !

المرأة في القرى اذن — كما لاحظت بعيني — لا تعامل من
الرجل أكثر مما تعامل الماشية والسوائم ولا ينظر اليها أكثر من
أنها «معمل» لتخريج الاطفال كماامل الكتاكت الذين يعيشون
في قذارة وبيئة أسون وأحب لدينا ان نراهم موتى أو لانراهم مطلقا
من ان نراهم أحياء على هذه الصنورة المحجلة القذرة المبكية ، ولا ينظر
الى المرأة أيضا أكثر من أنها «وعاء» يصب فيه الرجل لذاته
وشبهواته الجسمية الزائلة الفانية ! أترضى هذه الحال المبكية ، والمحجلة
مما أنصار ونصيرات المرأة !

ومن المؤلم أيضا بل من المبكي حقا ان الفلاح المصرى قد
يهون عليه أحيانا ألا يكذب على ولي من الاولياء الصالحين ثم
يبيح لنفسه ولدينه وضميره أن يكذب على ربه وخالقه ! نفسية
غامضة غريبة لا تخلو من العجب ولا من الاسى والاشفاق الكثير !
وهكذا تكون حياتنا الزوجية الريفية الداخلية القائمة كما قلنا
على الصدف حيننا وعلى الجبر والعمى حيننا آخر مع ان النبي عليه
السلام أشار بوجوب معرفة كل من الخاطب والمخطوبة كل ما بهما
معرفة قبل الزواج فقال « اذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع ان
ينظر منها الى ما يدعوه الى نكاحها فليفعل » وقال عليه السلام المغيرة
حين أخبره بأنه خطب امرأة : « انظر اليها فانه أخرى أن يؤدم

بينكما » والكننا لا نريد ان نفكر ولا أن نبحث ولا أن نسير في حياتنا حتي كما كان يسير من قبلنا فضلا عن أن نساير عصرنا ومقتضيات زمننا ! ! الآن وقد تبين لنا مركز المرأة في القرى بأزاء الرجل ومعاملة الرجل ونظرة اليها ، وبعد ان تبين لنا أن هذا التعاقد الجنسي من الرجل والمرأة تعاقد باطل قانونا في أغلب الأحيان وشرعا ودينا أيضا لأنه لم تراعى فيه مطلقا شروط التعاقد الاولى التي من أهمها رضا الطرفين المتعاقدين وتوافق الارادتين المشتركتين في العقد ، ولأنه شرعا ودينا باطل لما يرتكب فيه وباسمه من أمور ينكرها الشرع ويمقتها الدين كتلك الكميات العديدة من القسم واليمين دون احترام لدين ودون خوف أو رقابة من الخالق صاحب الاديان جميعها !

اذا تبين لنا كل هذا فهمنا وتصورنا مقدار خلل الحياة الزوجية في الریف والفساد السائد فيها ، وأمكننا بذلك فهم العلاقة النفسية الباطنية بين الزوجين هناك : زوجان مات في كل منهما تقريبا الشعور بالحلب اللهم إلا في العلاقات والاحوال الجنسية ، زوجان يعيشان عيشا استبداديا مطلقا يرى الرجل نفسه هو الحاكم والسيد المطلق الباطش بأمره ونفوذه حيث يريد ومتى يشاء ، والمرأة المسكينة تري نفسها مجبرة لأن تخضع وتستذل لرجلها . فلقد تربى فيها روح الاستكانة والخضوع للجبروت ولذل من الرجل ومن غيره فأصبحت تخاف رجلها وترهبه بدلا من أن تحبه وتحترمه ! فهي جاهلة مسكينة

وهو جاهل مسكين والمرأة الجاهلة كما يقول المرحوم قاسم أمين
« تبذل حركات النفس الباطنة وتغيب عنها معرفة أسباب الميل
والنفور فاذا أرادت ان تستميل الرجل جاءت في الغالب بعكس
ذلك »

ولذلك هي لا تعرف مطلقاً أن تتقرب منه وتتجنب اليه وذلك
لجهلها بهذه الأساليب أولاً ولروح الخوف والنفور والجن الذي
غرسها الرجل فيها ثانياً ولكنها قد تحسن هذه الأساليب أحياناً الى
حد ما اذا كان للرجل زوجات أخرى معها وهذا منتشر بدرجة
مخيفة مريضة في الريف رغماً من فقر الرجل المبكى وشقاقه المفرط
ولكن لا تدهش كثيراً فمن المرأة هناك رخيص جداً وأقصد
بها المرأة التي تقابل الرجل الذي اقصدته أيضاً والذي نرثت عنه في
كثير من صفحات هذه الرسالة ، لا تدهش اذن اذا علمت ان
الرجل قد يتزوج امرأة بجنه واحد أو ببضع ريلات حبا في الزواج
أو حبا في النسل

ففي هذه الحالة وحدها اذن قد تتقرب المرأة من الرجل وتتودد
وتتعلق اليه ليعينها على الزوجة أو الزوجات الاخريات وليهبها حبه
وقلبه دونهن جميعاً ، وكثيراً ما تنشب المعارك وتحتد الشتائم بين
هؤلاء الضرائر استجلاباً لحب الرجل ، لا ! شهوات ولذات الرجل
والمرأة التي خلقت لتبعث في البيت جمالا وحياة وسحراً
ولتكون جنته أو ملاكه ، ولتجمل لرجلها حياته وتخفف أو تزيل

عنه همومه واعبائه وتشاركه لا جسدياً فقط بل قلباً وشعوراً وروحاً واحساساً في نعمه وفي يؤممه في تعبته وفي راحته ، وتذهب عنه السآمة والضجر والتعب بما تسري عنه وتلاعبه وتداعبه بأناملها الناعمة الدافئة القطيفية وبأنفاسها الحرى المتصاعدة من قلبها المحب الرحيم النابض وبأحاديثها العذبة المعطرة المتأرجحة التي يصفها الشاعر في قوله :

فمن أولو تجنيه عند ابتسائها ومن أولو عند الحديث تساقطه
وبنظراتها ولحاظها المسترخية النائرة النافذة الساحرة ، ولتربي
أولاده تربية صحيحة قوية ولتخلق فيه حب الحياة وروح العمل
والكفاح

مثل هذه المرأة تكاد تفارق ريقنا وتكاد تكون مجهولة هناك
كل الجهل ، اذن فإذا تكون وظيفة المرأة اذا لم تكن لزوجها ملا كما
يحرسه وطيبا يعالجه وفنانا يحمل له الحياة ووحيا يلهمه القوة وحب
العمل وقلبا متما لقلبه وروحاً أليفاً لروحه ؟ واذا كانت المرأة في
القرى تكاد لا تفهم ولا تقدر واجباتها نحو وظيفتها بأزاء الرجل
وبأزاء البيت التي هي ملكته وبأزاء أولادها ، واذا كان الرجل
أيضاً من هو : لا يفهم واجبه نحو المرأة ولا يعترف لها بمركز
محترم سام ولا يقدر وظيفتها في الحياة ورسالتها في العالم ولا يفهم لها
وجوداً ذاتياً مستقلاً محترماً في حدود عملها ووظيفتها ، فلا ننتظر

مطلقاً أن تكون حياتهما الزوجية سعيدة هنيئة كما نفهمه ونحسه
حين نتصور ونذكر السعادة والهناء !



آمال ورغبات

الفصل الخامس

وما هذه الآمال والرغبات إلا آمال ورغبات شاب من أبناء
الريف شهد بهينيه هذه الحياة الشقية البالغة أقصى مراتب الشقاوة
التي يعيشها الفلاح المصري ويحيها هذا المسكين الطيب ، فلم يشأ
أن يكتف آلامه ويسكت أنينه بل رأى انه من الواجب ومن الوفاء
للوطن وللقرية ومن الاحترام لنفسه وضميره أن يجأر بالثورة على
هذه الحياة التي تتنافى وكل مظهر من مظاهر الانسانية أو الرحمة في
عصر يقولون كثيراً ويرددون انه عصر الحريات وعصر الانسانية ،
وما هذه الآمال والرغبات الا مزيج من الرحمة والاشفاق والألم
والأمل والشعور الحق بالقومية والصرخة الحارة للأنفة والعزة
الوطنية والدعوة المبتعدة من الجسم ومن الروح ، المتقطعة من اللحم
ومن الدم ، الى الهدم ثم الى الانشاء ، فلقد آن الأوان بأن نعمل